قبل البدء..

بسم الله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده..
﴿رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا
قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾

أيام من حياتي..

عليّ أن أعترف - بدءًا - أنني لا أحسن جمع فُتات الذكريات.. وليس في حياتي ما يستحقُّ لفت انتباه القارئ أو استشارته.. وأحِبُّ - مع ذلك - أن أبدأ هذا الكتاب بنظرة طائر على رحلة المؤلف مع الإيمان، قد تضيء لك بعض الشُّموع وأنت تجول في ساحات هذا الكتاب ومضائقه؛ إذ قد يخطر في ذهنك وأنت تعبر سريعًا بناظريك على ورق فهرس الكتاب أن الفصول التي بين يديك حديثٌ مسلمٌ أسيرٌ ورائة دين الأجداد وهيمنة الثقافة التقليدية للبيئة العتيقة؛ فما أراد بكتابه في ثنائية «لماذا أنا مسلم؟» - «براهين وجود الله» و«براهين النبوة» - سوى أن ينتصر لدينه بحماسة الغرّ الذي لا يعلم أن وراء أسوار عالمه الصغير عالمًا من أفكارٍ مَوَّارة، وصراعاتٍ حاميةٍ بين عقائدٍ متنافرة، متشبثًا بأوهامٍ مسطُورةٍ في زُبر الساذجين..

إذا كان القارئ يعتقد أن المؤلف مقلد للموروث، واقعٌ تحت أسرِ التفسير الرَّغَبويِّ، فما يأتي من الكلام يَعْنِيهِ..

إن كان في حياة المؤلف شيءٌ أضمنُ لك العلم به بيقين، فهو أنه لم

يَعِشُ فِي بَيْئَةٍ تَتَعَصَّبُ لِلإِسْلَامِ، وَلَا حَتَّى تَرَى أَنَّهُ حِمَى مَصُونٌ. . بل كان غير ذلك. . أو قل: بل نقيض ذلك. . لقد نشأ في بيئة تحكُمها أعرافٌ تُقدِّسُ الدَّيْبِيبَ عَلَى الأَرْضِ، وَلَا تَرَى جَوَازِبَ نَوْرِ السَّمَاءِ غَيْرَ بَهْرَجٍ يُغْرِي مُتْرَفِي الذَّهْنِ، وَتَلِكُ حَصِيلَةُ مَشْرُوعِ التَّشْتِيبِ فَالتَّجْفِيفِ الَّذِي قَادَهُ رَبِيبُ الاسْتِعْمَارِ الْفَرَنْسِيِّ بِحَرَصٍ لَمْ يَكُنِ الْاِحْتِلَالُ الْفَرَنْسِيِّ يَطْمَعُ فِي مِثْلِهِ وَلَا نَصِيفِهِ. .

نَشَأَ الْمُؤَلَّفُ فِي بَيْئَةٍ قَدْ يُحَدِّثُكَ النَّاسَ فِيهَا عَنِ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَدْ يَتَحَمَّسُونَ لِكُلِّ فِكْرَةٍ، وَيَجْتَهِدُ النَّبَهَاءُ لِقَلْبِ كُلِّ صَخْرَةٍ بَحْثًا عَنِ كَشْفِ أَوْ كَنْزٍ، لَكِنْ يَبْقَى الْإِسْلَامُ هُوَ الْمَحْظُورُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَرْهَبُهُ النَّاسُ لِأَنَّهُ خَطَرٌ عَلَى سَلَامَةِ النَّفْسِ مِنْ أَدَى جَلَاوِزَةِ السُّلْطَانِ حَيْثُ الشَّمْسُ مُهَدَّدَةٌ كُلَّ حِينٍ أَنْ تَعْيَبَ عَنِ نَاطِرِيكَ إِذَا رَأَيْتَ فِي الْإِسْلَامِ أَمَلًا يُحَرِّكُ الْحَيَاةَ فَوْقَ عَالَمِ التُّسْكَ الضِّيْقِ وَالْمَظَاهِرِ الْمَوْسِمِيَّةِ الْفَارِغَةِ. .

تَهْمَةُ الْاِنْتِمَاءِ إِلَى الْإِسْلَامِ - فِي أَدْنَى مَظَاهِرِهَا الَّتِي دُونَهَا الْاِنْتِمَاءُ الْجُغْرَافِيِّ الْبَارِدِ - هِيَ التُّهْمَةُ الَّتِي لَيْسَ بَعْدَهَا تُهْمَةٌ؛ لِأَنَّهَا - عَادَةٌ - بَدَايَةُ رِحْلَةٍ الْمَعَانَاةِ فِي الزَّنَازِينِ، رَغْمَ أَنَّ الْأَمْرَ بِرُمَّتِهِ لَا يَعْدُو كَوْنَهُ إِيمَانًا بِالْإِسْلَامِ وَقِنَاعَةً بِفَسَادِ الْوَاقِعِ. . وَلَكِنَّ الْأَفْكَارَ مَدَانَةً حَتَّى لَوْ كَانَتْ حَسِيًّا فِي الصَّدْرِ. .

كَانَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَسْتَفْزُ خَاطِرِي - تَلِكِ الْأَيَّامِ - أَنْ أَرَى عَلَى الْقَنَوَاتِ التِّلْفِزِيُونِيَّةِ مَنْ يَتَحَدَّثُ عَنِ غُرْبَةِ الدِّينِ فِي أَيِّ بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ. . كُنْتُ أَقُولُ لِنَفْسِي: نَبَأٌ لَجْهَلِهِمْ وَوَقَاحَتِهِمْ! هُوَ لَا يَعْرِفُونَ مَا الْغُرْبَةُ! هُوَ لَا يُجَرِّبُوا أَنْ يُسَجِّنُوا فِي جُلُودِهِمْ، وَيَتَنَفَّسُوا أَظْلَالَ الرِّيحِ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ. .!

كُنْتُ كُلَّمَا خَرَجْتُ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى غَيْرِ الْمَسْجِدِ الْقَرِيبِ مِنَ الْبَيْتِ، أَعُودُ مِنْهَا؛ كُسُورَ شَطَايَا، وَلَا أَسْتَرِدُّ هَدْوَاءَ أَنْفَاسِي اللَّاهِثَةِ حَتَّى أَرْمِيَ أَضْلُعِي عَلَى الْفِرَاشِ وَقَدْ مَرَّقَنِي الشُّعُورُ بِالْوَحْشَةِ، وَتَبَعَثَتْ أَجْزَائِي إِلَى مَزِيدِ شَتَاتٍ.

كَانَتْ الْمَكْتَبَاتُ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ طَافِحَةً بِكُتُبِ الْعَالَمَانِيِّينَ وَالْمَلْحِدِينَ الدَّهْرِيِّينَ، وَكُلُّ الْمَعْطَلِينَ لِأَصُولِ الدِّينِ؛ بَلْ انْتَشَرَتْ الْأَنَاجِيلُ بِصُورَةٍ وَبَأَثِيَّةٍ وَعَجِيبَةٍ فِي مَعَارِضِ الْكُتَابِ، فِي بِلَدٍ لَيْسَتْ فِيهَا أَقْلِيَّةٌ نَصْرَانِيَّةٌ. . بِاخْتِصَارٍ، كَانَ لِكُتُبِ كُلِّ تَيَّارٍ فِكْرِيٍّ عَرَبِيٍّ أَوْ غَرْبِيٍّ وَجُودٌ فِي تُونِسَ إِلَّا الَّتِي تَدْعُو إِلَى

الإسلام في واقعنا . . . كان واقعا بلا أفق، نُجِرَ فيه الأليق . . . واقعا أسيرا في قَبْضَةِ الظَّلامِ؛ فلا ضِرامَ للنُّورِ يُشعِشِعُ عندَ الفَجْرِ . . .

وكان البلاءُ الأعظمُ كامنا في ظهورِ في المنظومةِ التعلیمیةِ التي جمعت إلى الفقرِ المعرفيِّ، تسطيحَ مداركِ الطَّلَبَةِ، وصرفهم عن التفكيرِ في حقيقةِ وجودِهِم، وأسئلةِ المعنى والغاية . . . كان حِصارُ الفِكرِ أعظمَ من حِصارِ الأبدانِ . . . لا صَوْتٌ فوق صوتِ القَحْطِ . . .

وقد اعتدنا ونحن في المدارسِ جُرأةَ بعضِ المدرِّسينَ على سبِّ الدِّينِ، والاستهزاءِ بمقدِّساتِ الإسلامِ، والدَّعوةَ جهارا إلى الإلحاد . . . ولا تنسى عيني منظرَ مدرِّسةِ «التربية الإسلامية» - وهي وقتها مادةٌ باردةٌ بلا رُوح -، وقد دخلت قاعةَ التَّدريسِ تحملُ قُبْعَةً على رأسها، وفي وجهها انكسارٌ بالكِ بعد أن مُنِعَتْ من لبسِ غِطاءِ الرُّأسِ؛ فما كان لها إلا أن تُخفي حِمَارَهَا بِقُبْعَةٍ تَبْصُمُ على هيئتها بَصْمَةَ النَّسازِ . . .

أعظم ما يمكن أن يجلِّدَ نفسَكَ في تلكِ المحنة هو أن يجترى عقلُك على التَّفكيرِ في الأسئلةِ الوجوديةِ، فقد تمَّ سَحْلُ الدَّعوةِ الإسلاميةِ بالكُلِّيَّةِ؛ فَحَالَ أَهْلِهَا لا يكاد يخرجُ عن السَّجنِ أو الاغترابِ في أوروبا، وكان التيارانِ الشيوعيُّ والحدائثيُّ يتقاسمان المنابرَ المعلنَةَ في الجامعةِ والإعلامِ، مُحْتَكِرِينَ مساحاتِ البلاغِ . . .

أن تُفكِّرَ دون خيارٍ في أن تسألَ وتبحثَ في خيارِ الإسلامِ، مِحنةٌ لم تُعرَفَ إلا في أوروبا القُرُونِ الوُسْطى - حاشا الأندلس -، أو بلادِ شِوِعيِّي القرنِ العشرين . . .

في تلكِ الظُّلمةِ التي مرَّ عليها عَقْدانِ كانت سلوأي في مكتبةِ اكتشفتُ أنها نَجَتْ من برنامجِ القَحْطِ المُمْنَهَجِ (لأسبابٍ ما) . . . كنتُ أنصِرِفُ عن الحضورِ للجامعةِ إلا ما كان واجبا، لأرتادَ هذه المكتبةَ، وأتنفَسَ ما فيها من رُوح، أستعيدُ بذلكَ أنفاسَ الحياةِ . . . وهناك انفتحت لي رُوْزَنَةٌ إلى سَمَاءِ أَوْسَعِ، وإن على ضيقٍ.

كنتُ أقرأُ بِنَهَمٍ، وأبحثُ عن الكُتُبِ بِتَوَثُّرٍ شديدٍ لَعَلِّي أظفرُ بشيءٍ جادٍ

أفلت من أيدي «محاكم التفتيش» . . ولا أزال أعاني هذا الحرص الحامي في قراءة ما أخشى أن يفلت من يدي رغم مرور سنين عدداً على تلك التجربة التي تركت أنداباً في نفسي لا تمحى ولا تندمل، وكأن تلك اللهفة قد استوطنت الخلايا؛ فهي تأتي أن تحمد وإن غاب مُحفّزها . .

كان القلق الوجودي في نفسي كامناً في سؤال كبير يُسعل في نفسي لهيب الحيرة وينثر الكبر على قلب يبحث عن صفاء: كيف يعيش هؤلاء السائرون أمامي في الشوارع دون قلق؟! كيف تحملهم خطاهم على الطريق برفق، والطريق بعيد وشاق؟! وإذا كان الإسلام الشامل - برؤيته الكونية ورؤوميه العملية - دين الناس؛ فلماذا لا يُشكل الإسلام وإقبعهم؟ كيف تُطبق نفس المسلم أن تختصر هذا الدين في أشكال نسكية منزوعة الحرارة؟ من المخيط: عقلي القلق أم هذا الوجود الصاحب بالصمت؟

كانت مخالطة الناس تزيد السؤال انقاداً، وكانت نفسي تجد راحتها في قلة ممن عرفت، أغفلتهم يد الطغاة، ثم حصدت بعضهم لاحقاً . . جميل أن تكتشف أن في الدنيا بشرًا يسعون إلى فهمها، ويحرصون على الوفاء لذلك، ويرضون حمل همّ الفهم وأوجاع السير خلاف القطيع التائه . .!

كانت التيارات الشيوعية والحدائثية تستغل فوبيا ما يُسمى بـ«الإسلام السياسي» لثمكن لمؤسساتها ورؤموزها في البلاد، خاصة أن غضب الطاغية على هؤلاء كان رقيقاً ورقيقاً بسبب سلطان الرقيب الفرنسي ممثلاً في الدولة الفرنسية ومنظمات ما يُعرف بحقوق الإنسان، أو «دكاكين حقوق الإنسان» بتعبير بعض الصحفيين المضربين . .

في مثل ذاك الجو كانت نشأتي، وهي بيئة ما كانت لتدفع النفس إلى أن تتجه للإسلام رؤية كونية وحقيقة مقدسة . . وفي مواجهة التيار كان اقتناعي بالإسلام، وعلى خلاف المزاج العام^(١) كان اهتمامي بالنظر في الإسلام،

(١) تغير الحال بعد ذلك - بحمد الله - بعد انتشار القنوات الفضائية ووسائل التواصل الاجتماعي التي كسرت أسوار السجن الكبير. والله أسأل - بفضل - أن يردنا جميعاً إلى الحق والهدى.

الرؤية الكونية ومنهج الحياة.. وقد قرأتُ في تلك الفترة في العقائد الدينية (خاصة النصرانية) والمذاهب المعاصرة، فلم أجدَ فيها غيرَ برهانٍ جديدٍ يدعّم بأجوبته المتهافئة عن أسئلة الوجود الكبرى، صدقَ الأجوبة الإسلامية وحلولها البسيطة والعميقة..

تلك قصة البداية منذ أكثر من عشرين سنة.. وبعدها، سافرت إلى واقع آخر غير إسلاميٍّ أيضًا، لكنّه مفتوحٌ للمعرفة حيث بدأتُ رحلةً أرحبَ في طلب العلم، والبحثِ بعمقٍ أكبرَ في أسئلة الوجود وشواهدِ الحق، وليس هنا باب ذكرها.. فيكيفيك أن تعلم أن جبرَ هذا الكتاب لم تُحرّكه على الصحائف تجربةُ التلقين التقليديِّ وإنما حصائدُ النَّظَرِ والتَّفْقِيرِ الهادئ..

هل يُطوى الوجود في كتاب؟

لماذا أنا مسلم؟..

أن تشرح للناس، على اختلاف ثقافتهم، ومقدمات نظرهم، وملكاتهم، لماذا أنت على الإسلام، ولم على كلِّ إنسان أن يكون على هذا الدين، مشروعٌ ضخم، لا يمكن لهذه الثنائية أن توفيه حقه، ولكنَّ واجب البلاغ في بيئة تحفُّها الشُّبهات ألزمني أن أدفعَ الكتابين إلى النَّاشِرِ ضمن سلسلة «الإلحاد في الميزان» التي ابتدأناها بكتاب «مشكلة الشرِّ ووجود الله» جوابًا عن مشكلة الجَمْع بين كمال الله - سبحانه - ووجود الشرِّ في العالم، وكتاب: «فَمَنْ خَلَقَ اللهُ؟» جوابًا - فلسفيًّا مختلطًا بالجدل العلميِّ في الكوسمولوجيا - على اعتراض: «إذا كان وجود كلِّ شيءٍ يقتضي مُوجدًا، فمن أوجَدَ اللهُ؟» - وهو اعتراض قد فشل في فهم البرهان الكونيِّ لوجود الله -، وكتاب: «لماذا يطلب اللهُ من البشر عبادته؟» جوابًا على دعوى اقتضاء طلب/أمر الله البشر أن يعبدوه نقصًا في ذات الإله أو عبثًا في حقيقة الطلب/الأمر، وكتاب: «العالمانيَّة، طاعون العصر، كشف المصطلح وفضح الدلالة»، وهو في تعريف أكبر تيارٍ إلحاديٍّ، وهو الإلحاد العالماني (أو العلماني كما يُكتب عادة) الذي قد لا يُنكرُ وجود الربِّ الخالق، لكنّه يرد بوضوح وجود الإله الأمر..

وثنائية «لماذا أنا مسلم؟»، تهتم بجواب الاعتراض الإلحادي الذي يزعم

غياب أدلة إيجابية على وجود الله ووحدانيته وصدق النبوة المحمدية . . . وبذلك تكون غاية هذا الكتاب، وكتاب «براهين النبوة» دفع الدعوى التي تزعم أنّ الانتماء إلى الإسلام ميراثٌ ثقافيٌّ، سببه جغرافيٌّ، لا تقوم له براهين مقنعة . . .
 وجواب سؤال «لماذا أنا مسلم؟» محرج لأنه مُرهق؛ إذ يطلب في صورته الغرّة من الكاتب أن يجمع خيوط الآفاق وما وراءها أمام عيني القارئ؛ فيرى دقيقَ تفاصيلها قبل عظيم ملامحها . . . وذاك مُحالٌ، وإن جاوزت هذه الثنائية الألف صفحة؛ فهل تُحيطُ حدقة العين بالبحر السَّارِبِ إلى ما وراء منتهى البصر؟!

وإنّي وإن كنت لا أسعى إلى تجميل الكتاب في ناظري القارئ، تاركًا له الحكم على ما فيه من استدلالات، وردودٍ على النقود والمعارضات، إلّا أنّني أسمح لنفسي أن أذكر أنّ هذا البحث قد فتح أمامي أبوابًا جديدة للنظر، وعمّق في عقلي وقلبي فهمًا أجلى للكون. وقد وجدت - بالخبرة الشخصية - أنّ أفضل سبيل للتفكير، هو «التفكير بالكتابة»؛ أي: دراسة الأسئلة من خلال الحفر في مجالات بحثٍ ضيقة بجدّ وجهد يسعيان لاستيعاب أطراف الموضوع ومراجعة جهود السابقين في تناول الأسئلة ذاتها عند تأليف الكتب؛ إذ التأليف يستغرق عقل الكاتب وروحه، وينقله إلى معايشة لصيقة لأبواب بحثه . . .

وقد عشتُ مع أسئلة هذا الكتاب - والذي يليه - سنوات طويلة، غير أنّ عُكوفي على تأليف هذا الكتاب والذي يليه هذه السنة والتي قبلها قد ألزمني أن أفرغَ الذهنَ إلّا من التفكير فيه، وأن أفرغَ الوقت إلّا من الاستغراق في التجوال في نواحيه. وقد خرجتُ منه على غير الحال التي بدأتُ فيها طرق أبوابه . . . فقد اقتربتُ من صغير ملامحه؛ فإذا وراء تلك «الصَّغائر» تفاصيل شائقة، وإذا وراء تلك النوافذ الضيقة سماوات فسيحة . . .

ولعلّي زمن الرقود في جُبِّ الألفة وغيبة العادة كُنْتُ موافقًا لمن يرى في قول الشاعر:

يَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ
 وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ وَفِي كُلِّ تَسْكِينَةٍ شَاهِدُ

وفي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ
لغة شاعريَّة لا تليق بصرامة العقل؛ فإنَّ دلائل الوجود الإلهي محصورة
عدداً، وإن كثرت، والقول: إنها ظاهرة في كلِّ شيءٍ لغَةٌ شعراء تُحِبُّ الألوان
الفاقعة لتثير المشاعر الخاملة لا لغة الفلاسفة وعلماء الطبيعة.. غير أنَّ
الخروج من النظر العجول، إلى النفس والكون، والانغماس في السؤال عن
حقيقة كلِّ موجودٍ، وطبيعته، وأصله، ومآله، يقود ضرورة إلى رؤية آثار
الوجود الإلهي فيه.. في كلِّ شيءٍ.

إنَّ دلائل الوجود الإلهي ظاهرةٌ في حقيقة النَّفس وتمتدُّ الكون، وفي
الذرة والمجرة، وفي جَوْعة القلب وحركة العقل، في النَّبتة والحيوان، وفي
الزَّهرة والبستان، وفي النُّور وحالِك الظَّلام.. إنَّ التفكير في كلِّ موجودٍ -
حقيقته وهياته ووظيفته -، لا بُدَّ أن ينتهي إلى الإقرار بوجود إلهٍ..

والكتاب يتناول النظر في الظواهر السابقة، ويكشف أنَّها تشفُّ ضرورةً
عن وجود إله.. وتلك هي المشكلة.. كيف للكتاب أن يفِي لموضوع براهين
وجود الله بالعرض والبسط، والبراهين ظاهرة في كلِّ شيءٍ؟! لا حلَّ غير
الاكتفاء بأوضح الدلائل أو أدناها إلى العقل والعين، والاكتفاء بالتمثيل، بذكر
بعض النماذج، دون الاستيعاب؛ فالاستيعاب محال.

ويبقى - بعد ذلك - من أهداف الكتاب أن يألف القارئ رؤية آثار
وجود الله في كلِّ شيءٍ؛ إذا أحسن طرح الأسئلة الفلسفيَّة والعلميَّة الممهِّدة
للنظر..

من أَحَدْتُمْ؟ وبِمَ أَحَدْتُمْ؟

المشكلة الكبرى التي واجهت هذا الكتاب عند بداية نَسج أبوابه ونَظْم
براهينه، هي طبقة القُراء الذين يتوجَّه إليهم الخطاب؛ إذ لا يمكن بحالٍ أن
يجمع كتابٌ يتناول براهين الإيمان جميع طبقات القُراء، فهم - إجمالاً - ثلاثة
أصناف:

• العامَّةُ ممن يُحبُّون سهولة العبارة وتبسيط الدليل واختصار الكلام،

وتزعجهم وُعورة الاستدلال، وكثرة المصطلحات، وتوالي الاستطرادات لردّ شبهة وإبطال معارضة.

• المثقفون، وهم الذين يحملون معرفةً متنوّعةً بأُمورٍ مُتعدّدةٍ دون تخصُّصٍ معرفيٍّ دقيقٍ في كلِّ باب. وهؤلاء يُحبُّون بسط العبارة وتنويع الاستدلالات بعيدًا عن اللُّغة التخصّصية.

• المتخصِّصون، من الأنصار والخصوم، وهم «الذين يعلمون كلَّ شيءٍ عن شيءٍ واحد»، وهؤلاء يحفظون الاستدلالات المشهورة، والطرائق المسلوكة في إقامة الحُجج، ويبحثون عن التَّجديد.

لا شكَّ أنّ الكتابة للعامة مُغرية؛ إذ تفتح للكتاب أبوابًا أكبر للقراء، غير أنّ آفتها الحاجة إلى المبالغة في التبسيط حتى يفقد الكتاب جدّته وجدّيته، ليصبح صورة مكررة لما كتب من قبل، بالإضافة إلى وجوب الابتعاد عن ذكر الدلائل المركّبة والإشكالات الصعبة. كما أنّ التأليف في مخاطبة أهل التخصُّص له طعم خاص؛ إذ يُطلِّق يد الكاتب على سجيّتها، فلا يتكلّف التفسير والاستدراك بما يقطع دُفوق الكلام، كما يُريحه من عبء المقدمات التفسيرية. ويبقى - مع ذلك - الخيار الأفضل هو الكتابة للقارئ المثقف الذي يملك صبرًا على القراءة، وجلدًا في تتبّع أوجه النّظر والجدل، وحماسةً لسبِّ غورِ المباحث الجديدة... ولذلك كان هذا الكتاب متوجّهًا في نسج الكلام وسبك الأدلة إلى العقل المثقف الجاد.

اندهش!

إذا أردنا أن نقرب من هذا الكون - ونحنُ بعضه - لنقتحم لُجّته، فلننظر إليه وكأننا نراه أوّل مرة؛ نظرة الطّفل الوليد.. ولن نملك ذلك حتّى نندهش، فالاندهاش مفتاح كلّ كُشفٍ، والبلادة تُذهبُ قلَقَ العين الباحثة والعقل الجريء.. وقد قيل: «كثُرَةُ المساسِ تُمِيتُ الإحساسَ».

إنّ الاندهاش هو الخطوة الأولى لتأسيس إدراكٍ واعٍ بالوجود، بريءٍ من سلطان التلقين.. ولذلك هو طريق الأحرار في صناعة الثورات الفكرية، حيث

يواجهُ المرءُ بيئته بالاندهاش من فسادِ ما أَلْفُوهُ وطُبِعُوا عليه، فيبثُّ في قومه شعورَ الدَّهْشَةِ، ومن الدَّهْشَةِ تَبْرُقُ الفِكرَةُ الواعِيَةُ بأنَّ المألوفَ ليس من بداهات العقول ولا هو من رواسخ المواقف؛ فإنَّ لجذوره نهايةً قريبةً . . وبالدهشة يتجددُ الوَعْيُ الكَوْنِيُّ وينقطعُ الوَعْيُ الأَبْتَرُ.

والنظر في هذا الوجود - حتَّى لمن سَلِمَتْ فِطْرَتُهُ من لوثات البيئَةِ - يزيِدُ إيمانه عُمُقًا، ويُجذِّره في أصول القلب، ولذلك قال نبيُّ الإسلام ﷺ يوماً: لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ آيَاتٌ وَبَيِّنَاتٌ لَمْ يَنْزِلْ لَهَا قَبْلُهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤] (١) . . فالتفكُّرُ في الظواهر الكونيَّة سبيلٌ لتعظيم أمرِ الربِّ، وإكبارِ نِعْمَتِهِ، وتجديد الإحساس بمعنى الحياة وغايتها.

إنَّ الاندهاش «إِكْسِيرُ الفَهْمِ»؛ لأنَّه يَضُخُّ في رثَةِ الوَعْيِ الشَّوْقَ إلى تنفُّسِ المعاني، والفرح بها، والسَّعي إلى فتح آفاقٍ جديدة كلِّما بلغت أفهامُ الناسِ حدودًا متقدِّمةً لِفَكِّ السُّحْرِ عن عالم الأشياء.

الاندهاشُ زادُ المسيرِ.. فأندهش لِتَصْنَعِ السُّؤَالَ؛ فالسُّؤَالُ هو الذي يصنع الحضارة!

اثبت على مبدئك!

أبرز ملمح للكتابات النِّقَادَةِ للتصوُّرِ الإيماني عدمُ ثبوتها على نهج واحد في الحكم على المناهج والظواهر والمواقف؛ إذ يجعلُ المرءُ للمواضيع التي يطرقها موازين مختلفة وإن اتَّحد جنسها، فهو إذا بحث في الإيمان بأمور لا تُدرِكُ إلا من خلال آثارها، كان سهلاً لِيَتَأَمَّنَ؛ يُصدِّق وجود السبب دون تكلف

(١) رواه ابن حبان، كتاب الرقائق، باب التوبة (ح/٦٢٦). وصححه الألباني.